


اللغة العربية والتواصل الحضاري

خطاب مناطق الاشتغال والآثار

أ.د. خالد فهمي[*]

يكشف فحص مناطق اشتغال اللسان العربي والتواصل الحضاري مع ثقافات الشعوب الأخرى ولغاتها عن حزمة متنوعة من هذه المناطق واضحة التمايز يمكن بيانها بتسمية عدد من الحقول التي أثمر فيها الاشتغال اللغوي العربي ثمرات وآثارًا واضحةً جدًّا.

وفيما يلي تعيين لعدد من الحقول المعرفية التي مثلت مناطق للاشتغال اللساني العربي أسهمت في تعزيز سياسات التواصل الحضاري على امتداد التاريخ، وأخذت أشكالًا متمايزة جدًّا في ثلاث حِقَبٍ بعينها هي:

أولًا: حقبة العصر الجاهلي التي غلب عليها الاشتغال في منطقة التجارة القديمة، وما خلفته من آثار لسانية تقع في القلب من دراسات الاقتراض اللغوي على الجانبين العربي والأجنبي مما أنتج قطاعًا من ألفاظ التعريب في العربية بوجه خاص.

ثانيًا: حقبة العصور الإسلامية الممتدة، ولا سيما بعد استقرار الدولة الإسلامية، وإسهامها في ترقية العلم العالمي، وتطوير الحضارة الإنسانية.

وهي حقبة امتدت نحو عشرة قرون كاملة، نهضت فيها اللغة العربية بعدد كبير من الأعمال الداعمة والمعززة لسياسات التواصل الحضاري.

ثالثًا: حقبة العصر الحديث التي تميزت بظهور جهد مؤسسي بالأساس كان من آثاره تعزيز التواصل الحضاري وتنظيمه؛ مما كان من ثمراته الاعتراف الدولي باللغة العربية لغة معترفًا بها في أعمال منظمة الأمم المتحدة المتنوعة.

وسوف تتجه هذه الورقة إلى تعيين مجالات الاشتغال وما نتج من كل مجال من آثار تؤكد خدمة اللسان العربي للتواصل الحضاري.

١ . خدمة اللغة العربية لمجال العلاقات الدولية بما هو تجلٍّ للحرص على التواصل الحضاري.

تمثل اللغة في حقل العلاقات الدولية أكثر من أداة تواصل، فهي كما يقرر د. خالد حنفي علي في قائلًا: «اللغة تمثل أداة أساسية لفهم طريقة التعبير عن الأفكار ومضامينها والإسهام في تشكيل الواقع السياسي في العلاقات الدولية»[١٣].

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة المنوفية .

(١٣) اللغة كأداة فهم وتشكيل العلاقات الدولية، ص٣، ضمن اللغة والعلاقات الدولية، ملحق: اتجاهات نظرية، مجلة السياسة الدولية عدد ٢٢٦، أكتوبر ٢٠٢١م.

والحقيقة أن تحليل لغة القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية من العلاقات الدولية يكشف عن موقف مائز وجديد للغاية على مسرح الأفكار التي كانت متداولة قبلهما في الصعيد الإقليمي والعالمي.

ومن أبرز ما يكشف عنه تحليل لغة هذين المرجعين العليين ما يلي:

أولًا: الحرص على الاعتراف والتقدير لمنظومات الأديان السابقة، من خلال ما يلي:

أ- مدح الكتب السابقة (الإنجيل / التوراة).

ب- مدح الأنبياء السابقين، وهو أمر يتجاوز الاعتراف بهم إلى تقديرهم والارتقاء بمنازلهم في الوعي الإسلامي.

ثانيًا: الحرص على تعزيز سياسات السلم العالمي من خلال:

أ- التوسع في إطلاق (المصطلح القرآني) أخ/ إخوة، توسيعـًا لدوائر الانتماء الإنساني.

ب- التوسع في نصوص مدح منجز الأمم المختلفة وتقدير سهمتهم في بناء الحضارة الإنسانية.

والحقيقة أن منطقة الاشتغال هذه من جانب اللغة العربية خلفت وراءها حزمة ثريَّةً جدًّا من الآثار يمكن أن تمثل نطاقًا لدراسات مهمة جدًّا في ميدان فحص ما أحدثه الخطاب الإسلامي من تجديد في مجال العلاقات الدولية.

وأظهر هذه الآثار هي:

أ- مجموعات الوثائق السياسية منذ العصر النبوي والخلافة الراشدة على وجه خاص وهي مجموعات وثائقية تغطي دعوة الشعوب للإسلام، وآداب إدارة الحروب، والفتوحات، وشئون الأسرى، ثم إدارة موارد الدولة الإسلامية، وتعيين الولاة، وإرسال الرسل والسفراء وما إلى ذلك.

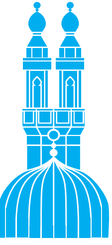
ب- مجموعات وثائق المعاهدات والاتفاقيات التي استمرت على امتداد نسخ الخلافة الإسلامية، بعد عصري النبوة ودولة الراشدين.

٢. خدمة اللغة العربية لمجال التعريف والتقريب بين العرب والشعوب الأخرى.

مراجعة نصوص السيرة النبوية تكشف عن حضور وعي ظاهر بإرادة التعريف بثقافات الشعوب، ودعم سياسات التقريب بينها.

ومن ذلك على سبيل المثال الحديث الصحيح(١٤) :

(١٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ،كتاب الفضائل، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، شرح النووي (١٦/ ٩٧)، والمصباح المضيء لابن حديدة الأنصاري ٢/ ٢٨٥.




«إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا»، أو قال: «ذمةً وصهرًا»[١٥].

والحقيقة أن اللجوء إلى إستراتيجية الاعتماد على المعجم من خلال التعريف بمصر التي يسمى فيها (القيراط) وهو تعريف بالمفردة الحضارية المنحدرة من المجال الزراعي الذي تشتهر به مصر.

وهذا الحديث مجرد مثال كاشف عما يمكن أن تنهض به اللغة العربية في مجال دعم التواصل الحضاري بين العرب وشعوب العالم المختلفة من المنظور الثقافي من طريق اللغة والمعجم بوجه خاص.

ومراجعة تدبر الكتاب العزيز في هذا السياق كاشف عن ظهور مراد ماثل في:

أ-التعريف بعدد من العلامات الثقافية والحضارية المادية للشعوب المختلفة، مثل: الآثار، والأماكن المميزة، والصناعات وغيرها.

ب-التعريف بعدد من الرموز والعلامات الثقافية والحضارية الفكرية للشعوب المختلفة، مثل: النظم والأفكار، والحكم وغيرها.

٣. خدمة اللغة العربية للتواصل الحضاري من طريق حفظ تراث اللغات الميتة.

لقد نهض اللسان العربي منذ فترة مبكرة جدًّا بدعم واضح من مرجعياته المؤسسة للتواصل الحضاري إلى العناية بنشاط الترجمة عناية بالغة الوضوح.

وآثار هذه العناية أثمرت ما يلي:

أ- حفظ التراث الإغريقي بترجمته إلى العربية حتى عدت الترجمات العربية لنصوص هذا التراث الإغريقي المصدر الأساس الذي اعتمدت عليه الحضارة الغربية في العصور الحديثة عند نهضتها.

وقد اتسع نشاط هذه الترجمة؛ ليستوعب مجالات الفلسفة، والمنطق، والطب والرياضيات والحساب، والفلك والآداب وغيرها.

ب- نقل نصوص علمية وأدبية من لغات حية كثيرة، ولا سيما الفارسية والتركية والحبشية والسريانية.

وهذه النقطة الأخيرة أسهمت في تطوير بحوث حقل الآداب المقارنة في المجال الإسلامي بصورة خاصة، حتى غدا هناك فرع من الأدب المقارن خاص بثقافات الشعوب الإسلامية ولغاتها وآدابها.

٤. خدمة اللغة العربية للتواصل الحضاري من طريق تصويرها قطاعات من الألفاظ التي يتعذر ترجمتها في اللغات الأخرى.

---

(١٥) صحيح مسلم، رقم: ٢٥٤٣.

يقول الثعالبي في «فقه اللغة وسر العربية»[16].

« فصل...في أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها»

وتحليل الأمثلة التي يمثل بها على ذلك تكشف عن نمط جديد، مما أسهمت به الثقافة العربية الإسلامية لجوهر الثقافة العالمية مما هو وثيق الدلالة على رؤية العالم من منظور جديد، ومن هذه الكلمات: الزكاة والحج والمسلم والمؤمن، والقربان والإقامة والتيمم، والقبلة والمحراب والمنارة.

وفحص هذه الأنـواع من القوائم يكشف عن تنوع عطاء الثقافة العربية لجسم الثقافات العالمية، وترقية حضارة الإنسان، والتحليل الثقافي والحضاري للمعجم كاشف عن حضور اشتغال وتأثير للغة العربية في مجال التواصل الحضاري.

٥. خدمة اللغة العربية للتواصل الحضاري من طريق اقتراض قطاعات من الألفاظ الأجنبية عربتها وأسهمت بهذا التعريب في التعريف بثقافات شعوبها.

والحقيقة أن هذه المنطقة من مناطق اشتغال اللغة العربية بقضية التواصل الحضاري توجه النظر إلى ضرورة العناية بالتحليل الثقافي لقطاع الأعمال المعجمية للمعربات في تاريخ اللسانيات العربية التراثية الذي تراكم وأنتج معجمات المعربات من مثل: المعرب للجواليقي، وحاشية ابن بري عليه، ثم البشبيشي، ثم السيوطي، وابن كمال باشا، والشهاب الخفاجي، وعبد الرشيد الحسيني، ومصطفى المدني، والمحبي، ومحمد راغب باشا، وهو ما يعني تعزيز انتشار عدد من العلامات الثقافية للشعوب الأخرى من خلال هذه المعربات.

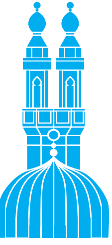
٦. تأثير اللغة العربية في تطوير المعجمية الثنائية ذات المداخل العربية في اللسانيات العربية وعلاقته بتعزيز التواصل الحضاري.

إن تحليل تاريخ المعجمية الثقافية ذات المداخل العربية للمستعمل غير العربي يكشف عن توق اللسانيات التطبيقية التراثية لإنجاز معجمات ثنائية تعين غير العربي على تحصيل مفهومات الكلمات النوعية والدينية العربية بالأساس من طريق ترجمتها إلى ألسنة هؤلاء المستعملين المسلمين وغيرهم إلى لغاتهم الأجنبية.

وهذه المنطقة التشغيلية التي تقدمت إليها اللغة العربية لخدمة التواصل الحضاري أسهمت في إنتاج المعجمات التالية:

---

(١٦) تحقيق د. خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٨م (٢/ ٥٢٤).




١-معجمات عربية/ عربية اعتنت بترجمة كثير من المداخل إلى اللغات الأجنبية ويمثلها:

أ- مبادئ اللغة للإسكافي ت ٤٢١هـ.

ب- مبادئ فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ٤٢٩هـ.

٢- معجمات ثنائية عربية/ فارسية كاملة، ويمثلها:

أ- السامي في الأساس للميداني ٥٣١هـ.

ب- مقدمة الأدب للزمخشري، ت ٥٣٨هـ.

وقد ارتبط بهذا الحقل التشغيلي ظهور طائفة من التراجمة عُرفوا حضاريًّا باسم العلماء «مزدوجي اللسان» الذين مثلوا جسورًا ثقافية بين اللغة العربية واللغات الأخرى، من أمثال الزمخشري المذكور توًّا، ومنهم كذلك أحمد بن كمال باشا ت ٩٤٠هـ.

وهذه الطائفة مهمة جدًّا في تاريخ فحص ما أسهمت به اللغة العربية في ميدان تعزيز سياسات التواصل الحضاري.

٧. تطور خدمة اللغة العربية للتواصل الحضاري في العصر الحديث.

إن الانتقال إلى العصر الحديث يكشف عن تطور جديد يتعلق بعلاقة اللسان العربي بالتواصل الحضاري تمثل في ظهور المؤسسات اللغوية الحكومية.

وفي هذا السياق أتوقف أمام إسهام مؤسستين بارزتين هما:

أ- مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي يكشف تحليل منجزه والمعجمي عن إرادة ظاهرة لتوظيف معجمات اللغة العربية التي أصدرها لخدمة التواصل الحضاري، وأخص في هذا السياق إنجازه لما يلي:

- معجم ألفاظ الحضارة.

- من أعلام الثقافة: (معجم تراجم).

ب- مركز الملك عبد الله الدولي لخدمة اللغة العربية، وأخص إنجازه في هذا السياق:

سلسلة اللغة العربية في العالم، وقد صدر منها عدد كبير تابع دفع اللغة العربية في إندونيسيا، والباكستان، وتركيا والهند وغيرها.

وربما أسهم العطاء المتنوع للغة العربية في خدمة قضايا التواصل الحضاري في صدور قرار الأمم المتحدة سنة ١٩٧٣م باعتماد اللغة العربية لغة رسمية في الدورة ١٩٠.

وهو قرار مسبوق بمجموعة من القرارات التي بدأت سنة ١٩٥٤م تجيز الترجمة التحريرية إلى اللغة العربية، ثم ١٩٦٠م، وتجيز استعمالها في المؤتمرات الإقليمية وتعزيز ذلك ١٩٦٦م إلى أن صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في الدورة ٢٨ سنة ١٩٧٣م بالقرار رقم (٣١٩٠).

ويعد هذا القرار اعترافًا من جانب، وترجمة من جانب آخر لعطاء اللغة العربية في خدمة التواصل الحضاري.

***